المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ٢٠١٧/١٢/٧

بدايةً أستأذنُ الصديقة مي المصري لأشكرَ المجلسَ الثقافيَ للبنان الجنوبي *على هذا اللقاءِ التكريمي للغائبِ الحاضرِ جان شمعون.*
وشكري للمجلس على دعوتي للمشاركة التي تشي بمعرفتِه بوجودِ لغةٍ مشتركة جَمعتْني وتجمعُني بجان شمعون.
بصوتِه الهادر ذي اللهجة الزحلاوية الآسرة، شارَكنا جان شمعون قهوتَنا الصباحية، أنا وزوجي عدنان وخط التماس، عبر البرنامج الإذاعي "بعدنا طيبين قولوا الله".
على صوتِ الثنائي، زياد الرحباني وجان شمعون، كان ضحكُنا المرُ يختلطُ بإيقاعِ النقدِ الساخرِ، اللاذعِ لحربٍ تتشيطنُ فوق رؤوسِنا، لم تلبثْ أن خطفتْ عدنان، حبيبي، وكثراً غيرَه.

ذاتَ جرسِ هاتف في بداياتِ زمنٍ سُمّيَ"سلماً"، لم أصدّق أن المتكلمَ هو الـ "جان" الزحلاوي "ما غيرو".
لا أخفيكُم رغبتي باللقاءِ به. اللقاءُ كان لغايةٍ في "نفسِ جان"، وفي رأسهِ مشروعُ فيلمٍ وثائقيٍ عن الحربِ في لبنان وضحاياها.

إنه لشرفٌ لي أن أتحدّثَ عن جان شمعون. أخشى أن لا تتهمُني كلماتي بالتقصير حيثُ أني لا أدّعي إلماماً بالسينما فناً ونقداً.
تحيتي لك جان.. كما عهدْتَني أمتهنُ قرصَ الظلمِ والظالم ومطاردةَ الحقِ والحقيقة، اسمحْ لي بقرصةٍ لأُولي المعالي والسعادة وبراعتِهم في تقليدِ القِرَدة الثلاثة "اللي بيسكروا عينيُن ودينيُن وتمُّن وبيزتّوا المفتاح (بيخبّوه؟). أيضاً ودون استثناء وزارة الثقافة وأربابِها، "كأنُن لا مين شاف ولا مين دري"..! والتصفيقُ استثناءً لمنبرِ هذا المجلس.
علاقةُ الصداقة مع جان ومي استبقتْ علاقة العمل بيننا، فعرفتُ فيه (جان) الفنان والإنسان، من الصعبِ الفصلُ بينهما. جان قال" السينما إن لم تكن ملتصقةً بهمومِ الناس وواقعِهم ومشاكلِهم اليومية فهي ليست بسينما".
دخل جان إلى تفاصيلِ يومياتي، في البيت مع ولدّي، في مكان عملي، مع أهل عدنان، مع أهلي. جال معي في مناطق وشوارع بيروت. مسحنا طرقاتِ وزواريبَ رأس النبع، هناك، دخلتُ بمعيتِه بيتَنا الذي منه خُطف عدنان، الذي منه هجّرنا. بيتُنا الجريح الذي ارتسمتْ على ملامحِه جداریاتٌ حكتْ عن كل أنواع الأسلحة التي اخترقته.

رافقني جان إلى الاجتماعاتِ مع أهالي المخطوفين. استمع إلى حكاياتِهم. أصبح لديه **"data base"** عن أسمائِهم وتحركاتِهم وكلِ ما يتعلقُ بأحبتِهم الذين سرقتْهم الحرب. ما تردّدَ عن واجبِ عزاءٍ لفقيد أو زيارةٍ لمريض. يعني باختصار صار "بينا وبينو" خبز وملح، ومنقوشة. آنسهم فأنِسوه. باختصارٍ أكثر، كان نموذجُ المبدعِ المتواضعِ بامتياز، ومصدرُ اطمئنانٍ وثقةٍ للأهالي، تُرجمَ ذلك بالسماح له، وبكل رضى، بتصوير ونقلِ معاناتِهم الى شاشات العالم.

قضيتُنا (المخطوفين والمفقودين) شغلتْ جان ومي. فشكّلتْ محورا أساسياً في فيلم روائي "طيف المدينة". وكان لها حصةٌ في "يوميات بيروت".ثم عادتْ القضيةُ بقوةٍ إلى الضوء في آخر فيلم لجان"مصابيح الذاكرة " (٢٠٠٩).

أما أول فيلم وثائقي عن قضية المفقودين في حرب لبنان فكان "أحلام معلّقة".

في هذا الفيلم سلّطَ جان الضوءَ على الحربِ وآثارِها المدمّرة، وعلى كل القضايا العالقة في البلد وما تزال.. عدستُه رصدتْ جبالَ وشواطىءَ الزبالة، النفاياتِ السامة التي دُفنتْ في "شننعير". كان أولُ فيلمٍ وثّق سينمائياً مشكلةَ النفايات في لبنان. أثبتَ بذلك أن كل القضايا المحقّة والمُطالَب بحلول لها ما زالتْ مطروحة حتى اليوم. في أحلامِنا/أحلامهِ المعلّقة زرتُ الصيادين المنكوبين، تحاورتُ معهم عن أسماكِهم النافقة بسبب"مرفأ النفايات" بالقرب من برج حمود. لو سمحَ الوضعُ الصحي لجان بعد انقضاءِ أكثرِ من عقدين على ذلك الحوار (٢٠١٥) لضبَطني في عدادِ المشاركين في الحراكِ المدني، نُطالبُ بإيجادِ حلٍ جذريٍ لمشكلةِ النفايات والمكبات العشوائية. لكان هلّل، ربما كان تحمّسَ لفكرةِ فيلمٍ جديد.

في أحلامِه المعلّقة إضاءةٌ على مشكلةِ التهجير ومأساةِ المهجرين، من دون إغفال دورَ الاحتلالِ الإسرائيلي وما سبَّبهُ من إذلالٍ وإفقارٍ ومصادرةِ أرواحٍ وأرزاقٍ وأحلام سكان القرى الجنوبية لا سيما الحدودية منها.

في أحلامِه المعلّقة تعريةٌ للسلم الأهلي المزيف، للسلم اللاهثِ وراء إعادةِ الإعمار لإخفاءِ كلِ ما نتجَ عن الحربِ من دمارٍ في لعبةٍ مكشوفةٍ، هدفُها طمسُ ذاكراتِنا وتغليبُ سياسةِ النسيان دون أي محاسبةٍ أو مساءلةٍ أو حتى مراجعة. لقد كان جان سبّاقا في غرزِ الإصبع.

هذا الفيلم كان من ضمن ستةِ أفلام اختيرتْ من الـ "بي. بي. سي"، وعُرضتْ بمناسبةِ قمةِ الأرض في ريو ديجانيرو من أجل البيئة العام ١٩٩٢. لا تزال مواضيعُه ماثلة إلى اليوم، تعنينا بشكل أساس. ولكل غيّورٍ على مصلحة البلد وعلى معالجة مشكلاته المزمنة مشاهدة هذا الفيلم والترويج له، علماً أنه سيتيحُ له أيضاً الإطلالةَ على مسارِ جان شمعون المنحازِ إلى طائفةِ المقهورين والمهمّشين.
تُرجم هذا الفيلم الى كل لغاتِ العالم. حصد العديد من الجوائز. عُرضَ في أكثر من مئة محطة تلفزيون عالمية. ما عدا شاشات التلفزيون في لبنان حيث لم تتسع حتى اليوم الى هذه النوعية من الأعمال.!!

بالأحلامِ المعلّقة طفنا على العديد من مدارس وجامعات لبنان، إلى منتديات ثقافية وشبابية واجتماعية.
شكرا جان، لقد ساعدتْنا على خرقِ حالةِ الحصارِ والتعتيمِ التي طوّقتْ تحركاتِنا، وعملتْ على كمِّ أفواهِنا تحت شعار عدم التشويش على السلمِ الأهلي الناشئ، وعلى وجوبِ الانخراطِ في ورشةِ إعادةِ الإعمار.
هذا الفيلم ساعدنا في أول حملة وطنية أطلقناها العام ٢٠٠٠ تحت شعار "من حقنا أن نعرف" بالتشارك مع أصدقاء للقضية تكنّوا بـ"حقنا نعرف". حملةٌ أثمرتْ انتزاع اعتراف رسمي بقضيتنا بعد انقضاء ثمانية عشر عاما على نضال الأهالي.

هذا البقاعيُ المتجذّر بالأرض، حمل بقلبهِ، وعقلهِ، وكاميرتِه همومَ الناسِ في لبنان وفلسطين. تماهى مع قضاياهُم وأحلامِهم . وثّق مواجهاتِهم ضد الحربِ والقمعِ والظلم، حفِظها كمصادر وزاد للذاكرة والتاريخ.

شو كان عبالي يا جان لو بيسمح الوقت ت أعرض مقتطفات من إبداعاتك. بس مش هيدا اللي بيعمل فرق. ولا أنا اللي بعمل فرق.
بعتقد بيطلعلك دورة إخراج باسمك. بتستحق قاعة بشي صرح أكاديمي. شو بيمنع نشوفك ع طابع بريدي تذكاري؟ ليش ما بيخطر ببال وزارة الثقافة تكرمّك بعدد خاص من مجلة "شؤون ثقافية"، ليش ما بتكرّس منحة سنوية باسمك للتخصّص بالسينما...؟

قولك أيمتى يا جان رح نخلص من مقولة "لا كرامة لنبي في وطنه"؟ قولك، رح يلاقي داوود مين رح يفشّلو خلقو ويسمعلو مزاميرو شي يوم؟

لأني هلقدّ بعرفك ياجان، كنت حاسّة ادّيش كنت غاضب وحزين عا بلد كلّو معلّق مش بس أحلام المفقودين وأهاليُن..
بلد معلّق بين الدولة واللادولة.. معلّق بين السلم واللاسلم.. الحرب واللاحرب.. الحياة واللا حياة...
ومع هيك بحب قلّك انو لهلّق نحنا "بعدنا طيبين"... وبعدا أحلامنا معلّقة، بس بأكّدلك ما رح نسمح لحدا يصادرها "طالما بعد فينا شرش بينبض"، هيك قالت رفيقتنا "أوديت سالم" قبل ما تموت. انت شاركتنا بجنازة "أوديت" بالخيمة وصوّرتا وضمّيتا لمصابيح فيلمك الأخير.

جان لن أنساك، لن تنساك طائفتُنا (أهالي المفقودين). أستأذنُ الشاعرة "سوسن مرتضى" لأستعير من كلماتها "... ننساهن؟ مش رح ننساهن، لازم تا ننسى نتذكر...".
"ويئُن بدنا نعرف ويئُن حتى من الماضي نتحرّر". هيك بتقفل غنية "لا ضلّيت ولا فلّيت" اللي عملناها هدية، من ورا ضهرَك للمفقودين، حتى ما ينسونا..

جان، خسرناك بيناتنا ومعنا وحدّنا..بس صوتك، ضحكتك، صفاءك، حيويتك، ظرفك، ثقافتك، ثورتك وكل التراث اللي تركتو بيخلوك دايما حاضر... "مش كل اللي فلّوا راحوا" متل ما بتقول غنيتنا.

عذراً صديقي ع كل اللي قلتو لأنو حتماً دون مستوى جان "الظاهرة".
ولأنك "ما فلّيت" عبالي اسمع رأيك بالغنية.

وداد حلواني